وفاء النيل

في هذا اليوم الذي كان فيـه قدماء المصريين يقدمون لك فتاة من أجمل فتياتهم ، ويلبسونها أجملَ الاثوابِ وأثمنَ الحلى ، ويأتون بهـا الى وسط مياهك الهادئة ويطرحونها ضحية في أمواجك اللطيفة ، نأتي نحن ايضاً ابناء القرن العشرين بتقدماتنا وضحاياتا

كنت الهاً عظيماً ، لانك كجميع آلهـة البشر قوةٌ عجيبةٌ من قوى الكون ومظهر غريب من مظاهر الارض . فحسبوك الهاً كسائر آلهتهم التي يعبدونها تحب النقمـة وترتاح الى سفك الدماء وتصبو الى الذبائح والضحايا ، لذلك كانوا يزفّون اليـك كل عام فتاة فتانة لتكون لك عروساً أيها الاله وابن الآلهة . . !

هذا الوحشُ الضاري السفاح الذي يشرب الدماء والاثم كالماء الذي نسميه انساناً قد صنعك انت ايضاً كسائر الآلهة على صورته ومثاله . . .

على نغمات العود والقيثارة والمزمار ، وبين اناشيد الغناء وضجيج الاستحسان كانوا يأتون اليك بأميرةٍ من اميراتهم في ربيع صباها وريعان جمالها يترقرق الحسن في وجنتيها ويتألق الجمال في خديهـا ، ولا يخشون أن يطرحوها في احشائك أنت يا اله الرحمة والصلاح !

* * *

كنت الهاً عظيماً ، ولا تزال الهاً فخيماً بيدك الخير والشقاء ، وبين شفتيك الموت والحياة ، تضرب وتشفي ، وتميت وتحيي

لبثت الوفاً من السنين محجباً بحجب الاسرار ومستتراً بستر الألغاز ، فاقتفى البشرُ آثارك في البيد والقفار ، وتتبعوا مسيرك في الصحارى والرمال ، وناجوك كما ناجوا كل اله سواك ليعلموا من أنت وما انت وهم يحسبون الآن انهم قد كشفوا سرك واوضحوا أمرك — أيخترقون احشاء الارض؟ أيشقون الاطواد الراسيات بعضها بجانب بعض ؟ انهم لمقصرون عن ذلك تقصيراً ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً

تسير في عقيقك الفخيم العجيب ، كما تسير الآلهة في طرقها ، لا تلتفت يمنة ولا يسرة — تضحك من ابناء آدم وعلومهم وافراحهم واتراحهم وبخارهم وكهربائيتهم كما يضحك منهم « جوبتير » من نوافذ « أولمبس »

الانسان ابن امس أما انت فكائن منذ الازل وستبقى الى الابد ؛

عبدوك لان لك نفعاً يرجى وضرًّا يخشى كسواك من الآلهة الاخرى

عبدناك وقد عبدنا قبلك الفلكَ الدائر ، والنجمَ السائر ، والهواءَ والسحاب ، والجو والضباب ، والشموس والاقمار ، والاحراج والاشجار ، والطيور في اوكارها ، والاسماك في بحارها والوحوش في اوجارها

عبدنا من قبلك الخنافس والثيران ، والجبل والبركان والهوام والحشرات ، والاصلال والحيات ، وكل ما سبح في الهواء ، وغاص في الماء ، ودب على الغبراء ،

ولما لم تبقَ مادة في هذا الكون الذي لا تحيط به العقول ، وليس الى معرفة كنهه من وصول خلقنا من الوهم اكواناً جديدة وقوى عديدة واتخذناها الهاً ومعبوداً ، نخر لها ركعاً وسجودا .

عبدنا آلهة نصفها بشر ونصفها انسان ومخلوقات رأسها اله وجسمها حيوان

ولما لم تكفنا كل هذه الآلهة وهي الكون باسره والوهم بجملته عبدنا الرذائل والارواح ، والشياطين والاشباح ، وعقدنا محالفات مع ابالسة جهنم لنقوى بها على سلطة الاله الاحد والفرد الصمد

فلماذا لا نعبدك انت أيضاً أيها النيل السائر وسطنا بجلال يسحر العقول ، وسر يدعو الى الحيرة والذهول ، الجاري امامنا في منبسط الغبراء ، كما تجري الآلهة في منبسط السماء والمجرة في عقيق الفضاء

* * *

بيدانا قد انتقلنا الآن من عبادة الاوثان ، ووحّدنا الآلهة والاديان وجعلنا الهنا الاحد ديناراً ، واتخذناه لديننا شعاراً ، هذا النقد ذو الوجهين نظيرنا هو هو الهنا ومعبودنا ، نتبارى الى مسجده ، ونتجارى الى معبده

ولكن أليست مياهك انت يا الهَ الخير والصلاح ومصدر الحياة والفلاح هي التي حولت نضرة مصر نضاراً ، وتربتها تبراً ؛ ألست أنت الذي خلقَ هذا الالهَ الذي تعبده أمم الارض طراً وتعفر وجهها امامه ليلاً ونهاراً ، فانت انت اذاً اله الالهة !

* * *

في قلبك اسرار مصر وفي احشائك الغاز كهنتها المنافقين ، وسحرتها المشعوذين ، وفيك حديث ملوكها وغرائب اهرامها ، وعجائب هياكلها ، وفنون بنائها وضروب رسومها وسر مومياتها

دفن في جوفك مجد مصر المؤثل وشرفها الباذخ ومدنيتها القديمة التي وقف العالم أمامها مدهوشاً والتي تحج اليها عظماء الارض وامراؤها وملوكها لتشاهد آثارها فلا ترى الا اطلالاً دارسة وانقاضاً متردمة وهياكل ينعب البوم في خرائبها ومدافن تحوم الغربان حول مواضعها ، يحدق العالم فيها ويستنطق آثارها ويستفسر اسرارها ويجلو عن وجهها الصبوح حجب الخفاء والابهام ، فلا تنطق بحرف ولا تبوح بكلمة بل تنظر اليه شاخصة شخوص ابي الهول في الفضاء واصنام الالهة في الصحراء !

من يقدر في العالم ان يزيح اللثام عن محيا الالاهة « ايزيس » التي هي رمز الطبيعة وقد نُقش على تمثالها ابلغ ما نقشته يدٌ على حجر «. انا هو ما كان وما هو كائن وما سيكون وليس لبشر ان يحسر لثام الابهام عن محياي ! »

* * *

في أحشائك اسرار هذا الكائن العجيب الذي نسميه بشراً والذي توارت اخباره طي الخفاء والكتمان . ألم تتبسم يا اله مصر يوم مست يدُ الانسان الاول مياهك المقدسة . هلا فقهت حينئذٍ ان هذا الوحش الغريب الذي نفتش الآن عن حلقته المفقودة سوف يصير الهاً نظيرك ؟

شاد على ضفافك عروشاً باذخة ودولاً كبيرة ومدائن غناء ، وبنى لنفسه صرحاً من المجد كان معجزة الاولين واعجوبة الآخرين ، ثم ضاقت احشاؤك بمجده فجر جيوشه وجحافله واجتاح الارض براً وبحراً ودوخ الممالك شرقاً وغرباً ، ودوى العالم بحديث جرأته وتجاوب الجو بصدى

انتصاراته وبسط ظل مجده على أقاليم المعمور ونقش اسمه في صفيحة الكون بين اسماء الآلهة بجانب اسمك لانه ابنك وثمرة احشائك

* * *

بيدانه الله فانٍ كجميع مصنوعاته اما انت يا من هو صنع الالاهـة « ايزيس » فانك شطر منها كنت وكائن وستكون وليس لبشر ان يزيح لثام الابهام عن محياك

تكونتَ من مياه الارض التي تنعقد سحاباً في الجو وتنزل دموعـاً كاللؤلؤ على قنن الجبـال ، وتتفجر بحاراً في جوف الارض تجري الى اليمّ من حيث ولدت

انك منذ الازل وسوف تبقى الى الابد وليس للملك انقضـاء — سيأتي زمن ينقطع فيه صفير البخار الذي يهزُّ أمواجك ، وتنطفئ شموس الكهربائية التي تنير وجهك ، وتتداك هذه البنايات الشامخة القائمـة على ضفافك ، وتصمت آلات الطرب واناشيد الغناء على شواطئك ، وينقرض هذا الاله الصغير الذي يطاول مجدك مع اهرامه وهياكله وبواخره وآلاته ومدنه . ومدنيته ليست هي الا ألاعيب صبيانية تزول كما يزول اللاعبون بها وتبقى انت وحدك جارياً في طريقك الابدية ، كما تجري الآلهة في السماء والمجرة في عقيق الفضاء

* * *

تعود حينئذٍ الى جمالك الطبيعي الذي ورثته من « ايزيس » يوم ولدتك منذ بدء العالم تجري وسط هذا السكون الابدي بعد ان تكون قد

قطعت هذا السد الصبياني الذي وضعه الانسان حاجزاً في طريقك ، كما يقطع الجبار خيطاً من القنب يشده طفل الى ذراعيه

تجري بسكون وصمت ، وتسير بجمال وجلال ، كما انتَ سائرٌ الآن غير مبالٍ بهذا الاله الصغير الذي يجهل سر الآلهة — لا تنبت على ضفافك شجرة معرفة الخير والشر لئلا يأكل منها ويحيا الى الابد فيملأ بلادك هياكل وآلهة وجوك لغطاً وصخباً وشواطئك إثماً وفجوراً كما هو فاعلٌ الآن

تجري حينئذٍ بسكون وصمت ، وتسير بجمال وجلال ، لانك جميل وكل ما حولك جميل من سهول منبسطة وجبال راسية واشجار باسقة وزهور باسمة — تنظر السماء اليك وتنظر اليها وهي كأنها رقعة من زمرد مرصعة بالماس ، تتلألأ دراريها وتتألق انوارها

اذا كانت شجرة معرفة الخير والشر موجودة الآن على ضفافك فاجرفها الى قلب البحر واعماق الاوقيانس لان هذا الآله الصغير الساحر الذي هو بجانبك ، اذا صار الهاً خالداً ، أفسد الارض والجو وشوّش نظام ايزيس واستأثر بالقوة والسلطان واقلق راحته وراحة الاكوان

* * *

ذهب هذا الاله الصغير امس الى ضفافك ليعبدك كما كانت تعبدك اجداده وجاء بالسفينة التي كانت اسلافه تضع فيها عروسك لتقدمها ضحية لك لانه حسبك كنفسه تحب الانتقام وتصبو الى الضحايا

جاء اليك على نغمات العود والقيثارة والمزمار واصوات الغناء وانا شيد السرور كما كان يجيء قديماً منذ الوف من السنين . واذا كان لم يأتِ بفتاة

يقدمها ضحية لك فذلك ليس لانه قد عرفك الان الهاً تحب الخير وتصبو الى الصلاح بل لانه قد اصبح اشد حباً لذاته واكثر استئثاراً من ذي قبل فحفظ الفتاة لنفسه — انه غبي جاهل ولا يزال يصنع الهة اخرى على صورته ومثاله :

هذا وفاؤك ايها النيل فسر في طريقك الابدية وسبيلك الخالد كما تسير الآلهة في السماء والمجرة في عقيق الفضاء الدكتور سعاده

وهذا نصُّ الحجة التي تكتب سنوياً في الاحتفال بوفاء النيل بحضور فضيلة مفتي الديار المصرية والعلماء والاعيان :

في ليلة كذا الموافق كذا سنة كذا قبطية في المجلس المنعقد بالصيوان المنصوب برأس الخليج الحاكمي بمصر المحروسة لدى . . . . بمحضر كلٍّ من . . . وحضرات الاساتذة . . . وحضرات . . . من اعيان مصر وغيرهم من الفضلاء والوجوه قد تحقق وفاء النيل المبارك بأن بلغ في يوم كذا المرقوم السابق لهذه الليلة كذا ذراعاً وكذا قيراطاً من الذراع المعتاد بمقياس الروضة في القاهرة . وذلك من فيض الله واحسانه وتكرّمهِ ، ورأفةً بعباده ، وقد انشرحت بذلك الصدور وطلب الجميع من المولى الغفور ان يجعلَ النفعَ به عاماً ، ويديم السرور . وقد وجب الخراج على ارباب الاطيان واداء الاموال والمرتبات لجهة الخزينة العامرة حكمَ المعتاد ، والحمد لله على منتهِ ، والمرجو من فيض فضلهِ ان يجرينا على عوائدهِ واحسانهِ ، انهُ وليُّ ذلك والقادر عليه ، وفي يده مقادير كلِّ شيءٍ وكلُّ شيءٍ راجعٌ اليه

(٣٣)

والنخلُ كالغيدِ الحسانِ تزينت　　ولبسنَ من أثمارهنَّ قلايدا

ظافر الحداد

النخل على النيل

وللنخيلِ منظرٌ مهيبُ　　تراعُ في جمالهِ القلوبُ

فوق الضفافِ ظلُّها رهيبُ　　صفاً بصفٍ زانها الترتيبُ

من كل جبّارٍ عظيمِ القدرِ

تحسبها مرَدةً طوالا　　تحتَ مظلاتٍ زهتْ جمالا

في النيلِ جاءت تبتغي اغتسالا　　سحرها النيلُ فلن تزالا

واقفةً هنا بفعلِ السحرِ　　لباس فياض

١ — الجزيرة

جزيرة مصرٍ لا عَدَتْكِ مسرةٌ ولا زالتِ اللذاتُ فيكِ اتصالها
فكم فيكِ من شمسٍ على غصن قامةٍ يميتُ ويحيي هجرُهـا ووصالها

شاعر عربي

٢ — ليالي الجزيرة

انا في الحبِّ صاحبُ المُعجزاتِ جئتُ للعاشقينَ بالآياتِ
كان اهلُ الغرامِ قبلي أُميـ ـين حتى تلقنوا كلماتي
فانا اليومَ صاحبُ الوقت حقـاً والمحبُّون شيعتي ودُعاتي
ضربت فيهم طبولي وسارت خافقاتٍ عليهم راياتي . . .
فعلى العاشقين مني سلامٌ جاء مثل السلام في الصلواتِ
يعشق الغصنَ ذا الرشاقةِ قلبي ويحبُّ الغزالَ ذا اللفتاتِ
ياحبيبي وانتَ ايُّ حبيبٍ لا قضى اللهُ بيننا بشتاتِ
ان يوماً تراكَ عيني فيهِ ذاكَ يومٌ مضاعفُ البركاتِ
انت روحي وقد تملكت روحي وحياتي وقد سلبتَ حياتي
متُّ شوقاً فأحيني بوصالٍ أُخبرِ الناس كيفَ طعمُ الممات

* * *

فرعى اللهُ عهدَ مصرٍ وحيّا ما مضى لي بمصرَ من اوقاتِ
حبذا النيل والمراكبُ فيه مصعداتٍ بنا ومنحدراتِ
هاتِ زدني من الحديث عن النيـ ـلِ ودعني من دجلةٍ وفراتِ
ولياليّ «بالجزيرة» و«الجيـ ـزةِ» فيما اشتهيتُ من لذاتي

بين روضٍ حكى ظهور الطواويـــــسِ وجوٍّ حكى بطونَ البُزاةِ
حيثُ مجرى «الخليج» كالحيةِ الرقـــــطاء بين الرياضِ والجناتِ
ونديم كما نحبُّ ظريف وعلى كلِّ ما نُحبُّ مواتي
كل شيءٍ اردتهُ فهو فيه حسن الذاتِ كامل الادواتِ
يا زماني الذي مضى يا زماني لك مني تواترُ الزفراتِ

بهاء الدين زهير

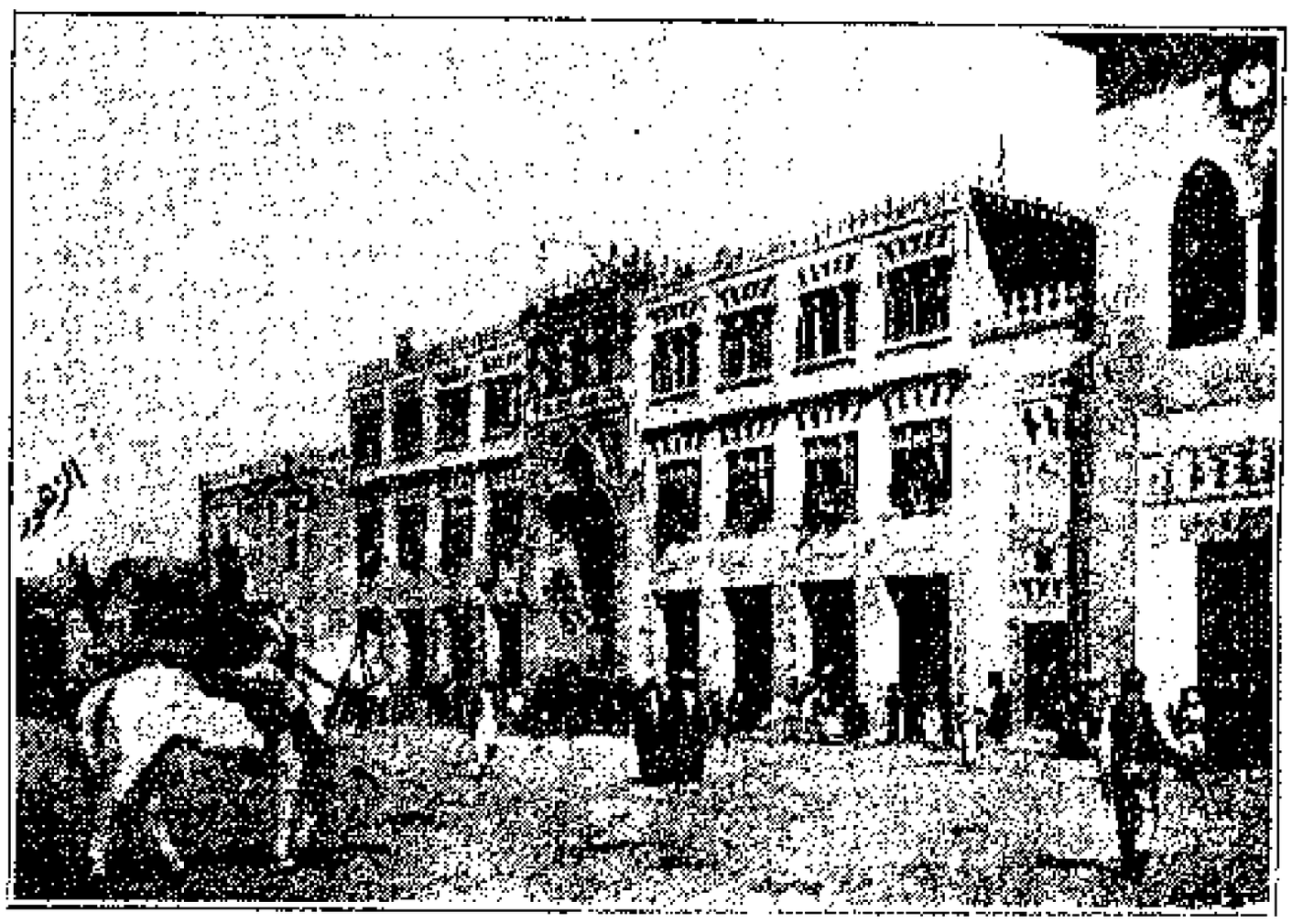

محطة مصر

لما انشئت محطة القاهرة الكبرى اقترحت الحكومة المصرية على الشعراء نظم ابيات ترسم على جدران المحطة ، وجعلت جائزةً للذي يحرز قصب السبق ، فنال الافضلية فقيد الادب المرحوم الشيخ نجيب الحدّاد . واليك الابيات التي يراها المسافر منقوشة على باب المحطة :

يا حسن عصرٍ بعباسِ العلى ابتسما حتى الحديدُ غدا تبراً له وفما
طرائق في ضواحي القطرِ تبلغنا اقصى البلادِ ولم ننقلْ بها قَدَما
مصرٌ كصفحةِ قرطاسٍ بتربتها غدا القطارُ عليها الخطَّ والقلما
ارضٌ بها كان خصب النيلِ منتثرًا حتى اتاها قطار النار فانتظما
لنا غنى عن قطار السحبِ منسجماً ولا غنى عن قطارِ النار مضطرما
يجري بها الرزقُ في جسمِ البلادِ كما يجري دمٌ في عروق الجسم منتظما
محطةٌ هي قلبٌ والخطوطُ بَدَت مثلَ الشرايين فيها والقطارُ دما
مع السلامةِ يا من سارَ مرتحلاً عنا واهلاً وسهلاً بالذي قدما

نجيب الحداد

الازبكية

كما وصفها المرحوم الشيخ حسن العطار شيخ الجامع الازهر المتوفي سنة ١٢٥٠ هـ.

واما بركةُ الازبكية فهي مسكنُ الامراء، وموطنُ الرؤساء، قد أحدقت بها البساتينُ الوارفةُ الظلال، العديمةُ المثال، فترى الخُضرةَ في خلالِ تلك القصورِ المبيضة، كثياب سندس خضر على اثوابٍ من فضة، يُوقد بها كثير من السرجِ والشموع، فالانسُ بها غيرُ مقطوعٍ ولا ممنوع، وجمالها يُدخلُ على القلب السرور، ويذهل العقل حتى كأنهُ من النشوةِ مخمور، ولطالما مضت لي بالمسرة فيها ايامٌ ولياليَ، هنَّ في سمطِ الايامِ من يتيم اللآلي، وانا انظرُ الى انطباع صورة البدر في وجناتها، وفيضان لُجَين نورِه على حافاتها وساحاتها، والنسيم بأذيال ثوب مائها الفضي لعاب،

وقد سلّ على حافاتها من تلاعب الامواج كل قرضاب ، وقامت على منابر أدواحها ، في ساحة افراحها ، مغردات الطيور ، وجالباتُ السرور ، ولذيذ العيش بها موصول ، وفيها اقول :

بالأزبكيةِ طابت لي مسراتُ ... ولذَّ لي من بديعِ الانس اوقاتُ
حيثُ المياهُ بها والفُلكُ سابحةٌ ... كانها الزهرُ تحويها السماواتُ
وقد أُديرَ بها دورٌ مشيدةٌ ... كأنها لبدورِ الحسنِ هالاتُ
مدَّت عليها الروابي خضرَ سندسِها ... وغرّدتْ في نواحيها حماماتُ
والماءُ حين سرى رطب النسيم به ... وحلَّ فيهِ من الادواحِ زهراتُ
كسابغات دروع فوقها نقطٌ ... من فضةٍ واحمرار الورد طعناتُ
مراتعٌ لظباء الترك ساحتها ... وللاسودِ بها فيهنَّ غيضاتُ
وللنديمِ بها عيشٌ تُجدِّدهُ ... ايدي الزمانِ ولا تخشى جناياتُ
يروحُ منها صريع العقل حين يرى ... على محاسنها دارتْ زجاجاتُ
وللرفاقِ بها جمعٌ ومفترقٌ ... لما غدت وهي للندمان حانَاتُ

الشيخ حسن العطار

الاوبرا

وقرب حديقة الازبكية قامت الاوبرا الخديوية ، أنشأها المغفور له الخديوي اسماعيل باشا وأول رواية مُثّلت فيها رواية « عائدة » لفردي الشهير
وقد حضرتها الامبراطورة اوجيني قرينة نابوليون الثالث :

الاوبرا

وصف مصر

في منتصف القرن الغابر زار مصر الكاتب الشهير فارس الشدياق وكتب عنها فصلين ضافيين نشرهما في كتابه « الساق على الساق في ما هو الفارياق » المطبوع في باريس سنة ١٨٥٥ م و ١٢٧٠ هـ على نفقة المرحوم رافائيل كحلا الدمشقي . وعنهما نلخص ما يأتي . وسيرى القارئ ان اكثر هذه الملاحظات لا يزال منطبقاً على ايامنا هذه . قال :

مصر بلد الخير، ومعدن الفضل والكرم ، اهلها ذوو لطفٍ وادبٍ واحسان الى الغريب، وفي كلامهم من الرقة ما يُغني الحزينَ عن التطريب . اذا حيّوك فقد احيوك ، وان سلّموا عليك فقد سلّموك . وان زاروك زادوك شوقاً الى رؤيتهم ، وان زرتهم فسحوا لك صدورهم فضلاً عن مجالسهم . اما علماؤها فان مدحهم قد انتشر في الآفاق ، وفاتَ فخرَ من سواهم وفاق ،

بهم من لين الجانب ورقة الطبع وخفض الجناح وبشاشة الوجه. ما لا يمكن المبالغةُ في اطرائهِ ... وكأنَّ حسن الخُلق ورقة الطبع امرٌ مركوز في جميع اهل مصر، فان لعامتهم ايضاً مخالقة ومجاملة . وكلهم فصيح اللهجة بيّنُ الكلام سريع الجواب ، حلو المفاكهة والمطارحة . وكلهم يُحبُّ السماع واللهو ، وغناؤهم اشجى ما يكون ، فلا يمكن لمن الفه ان يطرب بغيره ، وكذلك آلاتهم فانها تكاد تنطق عن المازف بها . ولهم في ضرب العود طرقٌ وفنون تكاد تكون من المغيّبات ، غير اني اذم من غنائهم شيئاً واحداً ، وهو تكرير لفظةٍ واحدة من بيت او موّال مراراً متعددة حتى تفقدَ السامعُ لذةَ معنى الكلام . ولكن اكثر ما يكون ذلك من المتطفلين على الفن . وبعكس ذلك طريقة اهل تونس فان غناءهم اشبه بالترتيل ، وهم يزعمون انها كانت طريقة العرب في الاندلس . . .

اما دولة مصر اذ ذاك فانها كانت في الذروة العليا من الابهة والعز والفخر والكرم والمجد ، فكان للمتسمين بخدمتها مرتب عظيم من المال والكسى والشِحَن مما لم يُعهدْ في دولة غيرها . . .

ومع عظم ما كان يكسبه التجّار واصحاب الحرَف ، وما يناله اهل الوظائف من الرزق العميم كانتِ الاسعار في مصر رخيصةً جداً . فلهذا كنتَ ترى الناس قُصريّهم وعميّهم مقبلين على الشغل واللهو معاً . فالبساتين غاصة باهل الخلاعةِ والقصوف ، ومحال القهوة مجمعُ الاحباب ، والاعراس مسموع فيها الغناء وآلاتُ الطربِ من كل طرف . والرجال يخطرون بالخز والديباج ، والنساء ينوءنَ بما عليهنَّ من الحلي ، والخيل

والبغال والحمير مسرجة ومكسوة بالحرير المزركش . . .

والغريبُ يجدُ في مصر ملهى وسكناً ، وينسى عندها اهلاً ووطناً . . . ومن خواصها ان اسواقها لا تشبه رجالها البتة . فان لاهلها لطافةً وظرافةً ، وادباً وكياسة ، وشمائل مرضية ، واخلاقاً زكية . واسواقها عارية عن ذلك راساً

ومن خواصها ايضاً ان البرنيطةَ فيها تنمى وتعظم . وتغلظ وتضخم ، وتتسع وتطول ، وتعرض وتعمق . . . وكثيراً ما كنتُ اتعجبُ من ذلك واقول : كيف انمى هواء مصر هذه البرانيطة وقد طالما كانت في بلادها لا تساوي قارورة الفراش . ولا توازن ناقورة الفَراش . وكيف كانت هنالك كالترب ، فاصبحت هنا كالتبر . . . ياهواءَ مصر يا نارَها يا ماءَها يا ترابها صيّري طربوشي هذا برنيطةً ، وان يكن احسن منها عند الله والناس فلم يغنِ عني النداء شيئاً وبقي رأسي مطربشاً ، وطرف دَهري مطرفشاً

ومن خصائصها ايضاً ان البغاثَ بها يستنسر والذباب يستصقر ، والناقة تستبعر ، والجحش يستمهر ، والهرّ يستنمر ، بشرط ان تكون هذه الحيوانات مجلوبة اليها من بلاد بعيدة